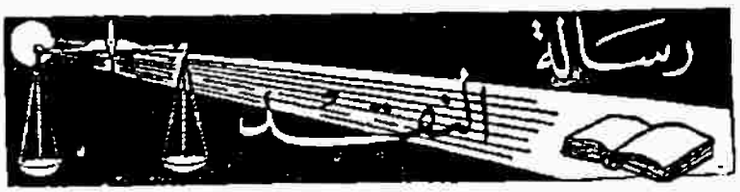

كتاب الكندى إلى المعتصم بالله

فى الفلسفة الأولى (١)

حققه وقدم له الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لم تمض إلا أربعة أشهر أو خمسة على كتاب « معانى الفلسفة » الذى ألفه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى حتى أتحف جناح الفلسفة فى المكتبة العربية بكتاب من كتب فيلسوف العرب يعقوب الكندى ، وهو الكتاب الذى بعث به أول فيلسوف من فلاسفة العرب إلى الخليفة العباسى .

ولم يكن غريباً على فلاسفة المسلمين أن يبعثوا بكتبهم إلى الخلفاء ، ولم يكن جديداً على « الكندى » نفسه أن يراسل الخلفاء فى مسألة من مسائل العلم ، فقد ذكر ابن أبى أصيبعة فى « طبقاته » أن للكندى رسالة إلى المأمون « فى العلة والمعلول » .

وتحمل مراسلات الفلاسفة للخلفاء والأمراء معنى تشجيع هؤلاء لأولئك ، وهى فى ذاتها دلالة من الواقع والتاريخ على ما كان يقوم به الخلفاء من احتضان العلماء وتقريبهم ومعونتهم على أداء الرسالة الجليلة التى نصبوا أنفسهم لها ، وأضنوا أنفسهم فى سبيلها .

وعنوان الرسالة نفسه « فى الفلسفة الأولى » يحمل سؤالا يرد على الخاطر لأول وهلة : فهل هناك فلسفة أولى تقابلها فلسفة ثانية وثالثة ورابعة ؟ وهل هناك فلسفة أولى تقابلها على سبيل الطباق البلاغى فلسفة آخرة ؟ كما يقال فى الشهور القمرية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ؟ وكما يقال فى صفات الله : هو الأول والآخر ؟ ؟

كانت أول الأمر أن الفلسفة الأولى هى فلسفة اليونان التى اشتغل بها العرب فى إبان نهضتهم فى الترجمة . فقد أكبوا على فلسفة اليونان ونقلوها إلى اللسان العربى الذى كانت الفلسفة شيئاً جديداً عليه . ولكن الدكتور الأهوانى يقول فى مقدمته التحليلية النفيسة للرسالة إن اصطلاح « ما دون الطبيعيات » هو نفسه « الفلسفة الأولى » ص٥٥ ؛ وقد يكون ذلك مقبولا لو أن عنوان رسالة الكندى هو « كتاب الفلسفة الأولى أو ما دون الطبيعيات » ، ولكن العنوان هو كما يذكر الدكتور الأهوانى « كتاب الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد » ، ويستنبط المحقق من هذا النص أن ما دون الطبيعيات غير التوحيد ، ولكنه ينسى ما يقوله الكندى فى أحد مواضع الرسالة أن الفلسفة هى علم الربوبية والوحدانية — أو التوحيد — وينسى ما يقوله الكندى فى موطن آخر : (إن علم العلة الأولى سمى بحق الفلسفة الأولى) .

ورسالة الكندى فى الفلسفة الأولى لا تزيد على نصف الكتاب المطبوع اليوم إلا قليلا . أما النصف الأول فهو تحقيق علمى دقيق فى ترجمة الكندى ونشأته ومنزلته فى تاريخ الفلسفة الإسلامية وأسلوبه فى الكتابة الفلسفية وتحليل الرسالة ذاتها ، وقد أضاف هذا التحقيق كثيراً من القيمة لهذه الرسالة التى كان للدكتور الأهوانى فضل نشرها فى لغة العرب لأول مرة ، وهو فضل نسجله دائماً مع الشكر لكل من يزيح ستراً عن أثر من آثار المسلمين إبان نهضتهم فى زماننا هذا الذى تدعونا فيه دواع كثيرة إلى كشف الغطاء عن كل أثر إسلامى صغر أو كبر .

وإذا كنا أخذنا فى عدد ماض من مجلة « الرسالة » على الأستاذ فؤاد جيمان عدم استيفاء التحقيق والتحليل لكتاب « ميزان الحكمة » الذى ألفه الحكيم الرازى ، فإن الدكتور الأهوانى كان فى الحق بعيداً عن موضع المؤاخذة حين أخرج رسالة الكندى فى الفلسفة الأولى هذا المخرج الذى يجرى على أسلم قواعد نشر المخطوطات . وإذا كان لم يقع لصديقنا الأهوانى من مخطوط الكندى إلا نسخة خطية واحدة فإنه فى الحق قد عنى نفسه فى التحقيق والمراجعة على الرغم مما عاناه من رداءة الخط وكثرة التصحيف وعدم الإعجام فى النسخ .

(١) نشر دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبى — ١٤٨ صفحة من القطع الصغير .

ولا أقول إن تحقيق الرسالة الكندية المتصمية قد أوفى على الغاية ، وخاصة حينما لا يكون بين يدى الناشر إلا مخطوط واحد يجتهد فى تخريج الغامض من نصوصه على ما يقتضيه السياق حيناً أو على ما يوحى به الحدس أحياناً ... مما يحمل الناشر على أن يقول هذه العبارة التقليدية ... : (فى الأصل كذا ولعلها كذا) ولعل مايقع من اضطراب أوغموض فى أسلوب الكندى مردود فى بعض الأمر إلى ما عند الناسخين من تخليط وتصحيف . والدكتور الأهوانى يعترف معى بأن الكندى الذى نقع له العبارات البليغة فى بعض رسائله ويحدث له التعبير الشرق « فى رسالة فى الحيلة لدفع الأحزان » لا يقع له الغموض فى بعض ما كتب إلا حين يحمله التفلسف على التوعر .

وأخشى أن يكون الكندى مظلوماً فى الذى قيل من رداءة أسلوبه . فهل كان هو ينقل الرسائل عن اليونانية بنفسه أم كانت تنقل له ؟ فاذا كانت تنقل له فليس الذنب فى الأسلوب ذنبه ، ولكنه ذنب الناقل ... ألم يختلف مؤرخو الحكمة الإسلامية فى كتب الكندى اختلافاً يدعو إلى العجب ... فابن النديم يقول عن كتاب جغرافية بطليموس إنه نقل للكندى نقلا رديئاً ... ويقول القفطى إن هذا الكتاب (نقله الكندى إلى العربية نقلا جيداً) . فأنت تقف أمام هذا التناقض موقفاً لا تدرى وجه الحق فيه .

ويذكر ابن النديم أيضاً أن كتاب « الإلهيات » لأرسطو نقله أسطاث المترجم للكندى الفيلسوف . فنريدنا شكا فى رسائل الكندى وصحة نقله إياها من اللسان اليونانى ... على أن صديقنا الدكتور الأهوانى لايبالى بأمثال هذه الشكوك ويمضى فى رسائل الكندى كأن الطريق إليها مأمون العثرات ...

ويظن بعض الناس عمداً أوخطأ أن الكندى مسيحى سريانى . وقد وقع فى هذا الوهم الفيكونت فيليب طرازى فى كتابه القيم « عصر السريان الذهبى » . ومن عجب أن هذا الكتاب طبع سنة ١٩٤٦ ، وطبع قبله كتاب للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وفيه نفى لمسيحية الكندى وتحقيق لهذه المسألة تحقيقا لا يدع مجالا للشك فيها . وأظن أن الكونت طرازى قد وقع له كتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق لأنه يفتخر بمكتبته العامرة فى بيروت فما معنى الإصرار على الأمر بعد تبين الحق فيه ؟ ؟ وقد أشرت إلى ذلك فى مجلة « الكتاب » عدد فبراير سنة ١٩٤٦ ص ٦١٦ ، وامثل الدكتور الأهوانى رأى أن هذه الحقيقة فى إسلامية الكندى وعربيته لا تحتاج إلى مزيد من التحقيق أو التقرير .

والكندى لم يُتهم بالانتساب إلى يونان كما يقول الدكتور الأهوانى فى صفحة ٢٣ . والظاهر أن المسألة اختلطت على الدكتور وهو ينقلها عن « المسعودى » فى كتابه « مروج الذهب » فلم يقل الكندى إنه يونانى ، ولكنه كان يذهب مذهب القائلين فى الأنساب أن يونان أخ لقحطان . وشتان بين هذا وذاك . أما الشاعر الذى هجا الكندى لهذا الخلط فى الأنساب فهو أبو العباس الناشىء من طبقة ابن الرومى فى الإجادة وما كان يستحق من الناشر هذا التنكير بقوله عنه « أحد الشعراء » ... وصحة البيت الأخير من أبيات « الناشىء » كما يلى :

وتخلط يونانا بقحطان ضلة لعمرى لقد باعدت بينهما جداً

ويظهر أن الكندى مبتلى باضطراب الناس فى حياته وفى آثاره وفى قيمته الفلسفية ؛ فالدكتور مدكور يقول عنه إنه كان ممهداً للفلسفة الإسلامية ولم يكن فيلسوفا . والدكتور أبو ريدة يقول عنه إنه كان فيلسوفا بالمعنى الواسع الذى يتمثل فى فلاسفة اليونان . والمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق يقول إن ما بأيدينا من آثاره لا يمكن من استخلاص مذهبه الفلسفى نسقا كاملا . وأغرب ما فى هذا الاضطراب أن شهرة الكندى كانت موضعاً للخلاف عند الناس . حتى أن الدكتور الأهوانى يقرر فى ص ٣٦ أنه كان عديم الشهرة ، وأن رداءة أسلوبه كانت علة فى عدم شهرته . وأين هذا من قول الناشر نفسه فى صفحة ٣٨ بأن الكندى اشتهر بالفلسفة ، وكأنه بهذا يناقض نفسه ... وأين هذا من قول القفطى عنه : (إنه المشتهر فى الملة الإسلامية بالتبحر فى فنون الحكمة الخ) .

بقيت كلمة واحدة فى مقدمة الدكتور الأهوانى لرسالة الكندى فى الفلسفة الأولى ، فقد بلغت من وضوح المقاصد وسلامة المنهج وسهولة التعبير مبلغاً نهنىء الأستاذ عليه ، وخاصة إذا قيست بالرسالة نفسها وما فيها من غموض فى بعض المواطن . وكأن الدكتور الأهوانى يعنى أن يقول بهذا الوضوح المقصود أن الغموض التعبيرى ليس دائماً من أدوات الفلسفة ولا من لوازمها .

محمد عبد الغنى حسن